البلاغة في ضوء علم النص

د.فاطمة محمود السَّيد محمد زوال

البلاغة في ضوء علم النص

مقدمة:

تعدُّ البلاغةُ المنظم الجمالي لشكل النص, كما أنَّها تعدُّ ركيزة من ركائز الإبداع الكتابي لما تملكه من ملكات لا يدركها إلا الكاتب الموهوب؛ ليصل إلى مكنون الجمال النصي دون تكلف أو تصنع.

ولأنَّ البلاغة تدخل في تشكيل النص, فنجدها تظهر من خلال الانسجام والتماسك, فيكون هدفها إنتاج نص جيد السبك والحبك لا يتم نجاحه بدونها.

إنَّ عملية إنتاج النص لا تتم إلا باستخدام كلِّ وسائل البَلاغة المُتاحة, فالبلاغة تسعى إلى مقتضى الحال؛ أي "الاعتبارات التي تدعو المتكلم إلى صوغ كلامه على صورة تركيبية ما"[١], فهي تنظر إلى الموقع والتشكيل الذي يستخدمه المتكلم في استعمال اللفظ؛ وهذا لمعرفة الجمال الظاهري التَّركيبي من ناحية, والدلالي للجمل من ناحيةٍ أخرى؛ مما يؤكِّد وحدة البحث البلاغي[٢] في علومه الثلاثة: المعاني والبيان والبديع, فرعاية المطابقة تستدعي ما يجب اعتباره من علم المعاني, ووضوح الدلالة تستدعي ما يجب اعتباره من علم البيان[٣], أمَّا علم البديع فيستدعي عمليات التجميل والتحسين الإضافية الزائدة على مطابقة الكلام للمقاصِد وتفاوت دلالته[٤]؛ ولذا كان علما البديع والبيان يرتبطان ببعضهما ارتباطا وثيقًا؛ والدليل على ذلك أنَّ تعريف البيان يتضمن البديع, "فالبيان علم يعرف به إيراد المعنى الواحد في تراكيب مختلفة, بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال"[٥], فإيراد المعنى الواحد في تراكيبٍ مختلفة يمكن أن يشتمل على معظم فنون البديع كـ الترديد, والمناسبة, والتَّكرار, والمشتركات اللفظية, ومن ثَمَّ تُصبح البلاغة منظومة

---

(١) د. شكري المبخوت: الاستدلال البلاغي, صـ ١٨

(٢) "سمِّيتْ البلاغة في أوائل حياتها الأولى بديعًا, وأطلق على الفنون البلاغية التي عُرفت إذ ذاك لقب البديع؛ أي أنَّ كلمة البديع, كانت ترادف في الاستعمال كلمة البـــلاغـــة, وكـان يُقصد بإحداهما ما كان يقصد بالأخرى" [د. بدوي طبانة: علم البيان, صـ ١٣]

(٣) د. محمد عبد المطلب: البلاغة العربية قراءة أخرى, صـ ٣٥١, ٣٥٢, بتصرف

(٤) انظر د. محمد العمري: البلاغة العربية أصولها وامتدادتها, صـ ١٧٤

(٥) د. لطفي عبد البديع: فلسفة المجاز بين البلاغة العربية والفكر الحديث, صـ ٣

لغوية مكتملة الأركان, لا تنفصل أجزاؤها, حتى نتمكن من الجمع "بين مفرداتها من ناحية, والكشف عن تفسير عميق لتحولاتها الظاهرة والعميقة من ناحيةٍ أخرى"[٦]؛ وذلك لإيجاد صلةٍ جديدة بين الظواهر الداخلية والخارجية للنص.

ويتضح مما سبق أنَّ الأبنية البلاغية تقوم على أبنية نحوية تُؤسَّسُ قواعدها النَّسقية على مستويات اللغة المختلفة, نحو: الأصوات, والصرف, والنحو والدلالة والمعجم[٧], فالبلاغة إذن, تعالج النصَّ وخصائصه وظواهره معالجة خاصة[٨], ومن ثَمَّ تتحول الأبنية النَّصية إلى أبنية بلاغية تُولِّد التفاعل الأمثل بين الجمل والأبيات والقصائد, هذا التفاعل خلقه عدة فنون بلاغية متراكبة تستغرق "مجموعة من الأبيات أو القصيدة بأكملها"[٩], في إطار متنوع ومتداخل بشكل لا يشعر القارئ "بوطأة فن بعينه"[١٠]؛ فتتضح كلية عملية "إنتاجِ نصٍّ جيِّد الأداء والسَّبك"[١١], وبالأخص نص بلاغي منتظم متلاحم ومتماسك الأجزاء هذا من ناحية, ومن ناحيةٍ أخرى, تنظر المنظومة البلاغية إلى عدة اعتبارات تخص الجوانب الجمالية للنص, منها "جودة اللفظ, وصفاؤه, وحسنه, وبهاؤه, ونزاهته, ونقاؤه, وكثرة طلاوته, وماؤه, مع صحة السبك والتركيب"[١٢], فهذه الاعتبارات من شأنها تحسين وتنميق وتزيين الكلام, وقد تحدَّث عنها أغلب علماء البلاغة, كوظيفة أساسية لعلم البديع, وهذه الوظيفة تحمل أحاسيس جمالية معينة تولد الإقناع[١٣] الذي اعتبره أوليفي روبول = من وظائف البلاغة بالإضافة إلى الوظائف التأويلية؛ إذْ تُستعمل استراتيجية الإقناع من أجل تحقيق أهداف

---

(٦) د. محمد عبد المطلب: البلاغة العربية قراءة أخرى, صـ ١

(٧) فان دايك: علم النص مدخل متداخل الاختصاصات, صـ ١٨٧ بتصرف

(٨) انظر المرجع السابق, صـ ١٨٣

(٩) د. حسني عبد الجليل: علم البديع بين الاتباع والابتداع (دراسة نظرية وتطبيقية في شعر الخنساء), صـ ١٠, بتصرف.

(١٠) المرجع السابق, صـ ١٠

(١١) جيوفري ليتش: مبادئ التداولية, صـ ٨١

١٢() أبو هلال العسكري: الصناعتين (الكتابة والشعر), صـ ٦٤

(١٣) د. عزة شبل محمد: علم لغة النص النظرية والتطبيق, صـ ٤٨ بتصرف

المرسِل[١٤] النَّفعيَّة, بالرغم من تفاوتها تبعًا لتفاوت مجالات الخطاب أو حقوله[١٥], وبجانب الوظائف التأويلية تثبت أيضًا الوظائف الاتصالية باعتبار "أنَّ البلاغة إبلاغ, ولا يختلف هذا عن مفهوم الاتصال الذي

هو إبلاغ أيضًا"[١٦] وانطلاقًا من ذلك تُصبح وظيفة البلاغة ذات شقين: جمالي ونصِّي.

- دور البلاغة في تحقيق الترابط النصي: إنَّ النصَّ باعتباره إنتاجًا دلاليًّا يمتد بعلاقاته اللفظية والمعنوية إلى ما هو أبعد من مستوى النص الواحد, ويتضح الكشف عن هذه العلاقات بين النصوص من خلال تحليل وحدات النَّصِّ سواء أكانت صوتية أم صرفية أم تركيبية أم إيقاعية, للكشف عن الانسجام الداخلي بين الدلالات الجزئية والدلالات الكلية للنص أو النصوص[١٧], وعلوم البلاغة تستطيع أن تقدم منظومة متكاملة من العلاقات المبنية على الأبعاد الدلالية التي حاول العلماء تفسيرها قديمًا وحديثًا, هذا بالإضافة إلى قيمتها الجمالية والتأثيرية في نفس المتلقي الذي لديه رغبة في ربط النص؛ مما يجعله متَّصلًا بالنص, بل ومسهمًا في تفسيره بما يملكه من تجارب وعوامل نفسية واجتماعية ومعرفية, وهذا يؤكد أنَّ "الثوابت المتمثلة في أبنية النصوص تختلف عن المتغيرات المتمثلة في أشكال الفهم المتباينة",[١٨] "فالمعنى المتماسك ينتج من العلاقات"[١٩] العديدة والمختلفة

١٤() "يستعمل المرسِل أشكالا لغوية تُصنَّف بأنَّها أشكال تنتمي إلى المستوى البديعي, وأنَّ دورها يقف عند الوظيفة الشكلية, وهذا الرَّأي ليس صحيحًا؛ إذْ إنَّ لها دورًا حجاجيًّا لا على سبيل زخرفة الخطاب, ولكنَّ بهدف الإقناع والبلوغ بالأثر مبلغه الأبعد, حتى لو تخيَّل الناس غير ذلك, والبلاغة العربية مليئة بهذه الصور والإمكانات, ومليئة بالشواهد التي تُثبت أنَّ الحجاج من وظائفها الرئيسة, وليس وجودها على سبيل الصنعة في أصلها, وإنْ كان لا يمنع المرسِل مِنْ أنْ يُبدع كيفما شاء". [عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية, صـ ٤٩٧, ٤٩٨].

١٥() انظر المرجع السابق, صـ ٤٤٤, ٤٤٥

(١٦) د. خليفة بوجادي: نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية, مشروع لربط البلاغة بالاتصال, صـ ٧١٤

(١٧) انظر د. سعيد حسن بحيري: علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات صـ ٧٤, ٧٥ بتصرف.

١٨() سعيد حسن بحيري: علم لغة النص, صـ ١٠٦

على مستوى الشكل والمضمون, وعلى القارئ البحث عن هذه العلاقات حتى يلاحم بين الأفكار الواردة في النص, "فلو لم نستطع بناء العلاقات بسد الفجوات بين الأفكار, نخلق معنى غير متماسك في النص"[٢٠], هذا من ناحية.

ومن ناحيةٍ أخرى نجد التحليل البلاغي يستطيع أن يقترب من تفسير النصوص؛ وذلك عن طريق تحليل الصور البيانية, والمحسنات البديعية التي تضيف إلى الوظيفة الشكلية[٢١] المعروفة وظيفة نصية, لا تتحقق بدون الترابط والتماسك, اللذين هما أهم شروط النصية, فالارتباط بين الدلالة والفنون البلاغية يبرز العلاقات الخارجية الخَفية التي تنظم النَّص وتولده[٢٢]؛ "إذْ يُؤَدِّي الفصل بين الأجزاء إلى عدم وضوح النَّص, كما يؤدِّي عزل أو إسقاط عنصر من عناصره إلى عدم تحقُّقِ الفهم, ويُفسَّر هذا بوضوح من خلال مصطلحي الوحدة الكلية, والتماسك الدلالي للنص"[٢٣]؛ ولذا يتحول "كمٌّ من المنطوقات اللغوية إلى نصٍّ متماسك يؤدِّي بنجاح وظيفة اجتماعية - اتصالية"[٢٤], أضف إلى ذلك, أنَّ عوامل ترابط كمٍّ من المنطوقات اللغوية من أصغر وحدات النص إلى النص المتكامل تنظم البنية الكبرى للنصوص وتجعلها "أبنية دلالية تصور الترابط الكلي"[٢٥] للقضايا الكلية المتنوعة التي توائم "بين النصوص والمواقف بأنواعها المختلفة"[٢٦], ولا يتحقق ذلك إلا من خلال الكشف عن:

- العلاقات التي تربط أجزاء النص:

---

(19) Kristie S. Fleckenstein: An appetite of Coherence: arousing and fulfilling desires, college composition and communication, Vol.43, 1, feb 1992,p 83, ,"that coherent meaning results from the relationships".

(20) Ibid, p 83, ,"If we can't build relationships by bridging the gaps between ideas, we create no coherent sense of the text".

(٢١) انظر الشهري: استراتيجيات الخطاب, صـ ٤٩٧

(٢٢) ينظر د. محمد خطابي: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب, صـ ٤, ٥

٢٣() د. سعيد حسن بحيري: علم لغة النص صـ ١٠٨

(٢٤) المرجع السابق, صـ ٨١

٢٥() د. عزة شبل: علم لغة النص, صـ ١٩٥

(٢٦) دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء, صـ ٢٦٦

العلاقات التي تربط أجزاء النص, منها علاقات لفظية وأخرى معنوية, وفي هذا الجو من العلاقات والروابط يكون دور المعنى هو الربط بين ألفاظ النص؛ ليُرشد القارئ إلى دوافع استخدام التراكيب المختلفة داخل النص؛ للكشف عن الاتساق والانسجام داخل السياق النصي.

وتستطيع علوم البلاغة تنظيم العلاقات على النحو الآتي:

- العلاقات اللفظية (السبك):[٢٧]

السبك كمعيار من معايير النص, يهدف إلى الربط اللفظي, والمعالجة الأفقية[٢٨] السطحية "بالوسائل التي تتحقق بها خاصية الاستمرارية في ظاهر النص، ونعني بظاهر النص الأحداث اللغوية التي ننطق بها أو نسمعها في تعاقبها الزمني, والتي نخطها أو نراها؛ بما هي كمٌّ متصل على صفحة الورق, وهذه الأحداث أو المكونات ينتظم بعضها مع بعض تبعًا للمباني النحوية, ولكنها لا تُشَكِّل نصًّا إلا إذا تحقق لها من وسائل السَّبك ما يجعل النص محتفظًا بكينونته واستمراريته"[٢٩], ويتجلى هذا من خلال التراكيب النحوية المتمثلة في الكتابة مع مراعاة السياق, وتنحصر في القضايا الآتية:

١- التكرار الكلي والجزئي:

يُعَدُّ التَّكرارُ مِنْ أَبْرز وسائل السَّبك فهو أساس الفنون البديعية؛ إذ إنَّه ملحوظ من خلال البنية الظاهرية الشكلية للنص, علمًا بأنَّ التكرار يكون باللفظ أو المعنى,

---

(٢٧) السبك هو أحد المعايير السبعة التي وضعها دي بوجراند للنص وهي (السبك, والحبك, والقصد, والقبول, والموقفية, والتناص, والإعلامية) راجع كتابه: النص والخطاب والإجراء, صـ ١٠٣ وما بعدها.

(٢٨) يُنظر فان دايك: علم النص, صـ ٧١, وهي عدة جمل يجب أن تكون متماسكة أفقيًّا: ثمَّة ربط داخلي للقضايا بناء على علاقات بين الموضوعات وعلاقات إحالية بين الأفراد والخواص [انظر المرجع السابق صـ ٣٨٦]

(٢٩) د. سعد عبد العزيز مصلوح: في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة, صـ ٢٢٧

ومن التكرار في الفنون البلاغية: الترديد[٣٠], والجناس التام الناقص, المشاكلة[٣١], والتعطف[٣٢], وتشابه الأطراف[٣٣], ورد الأعجاز على الصدور[٣٤], والغلو[٣٥], والمبالغة[٣٦], والإيغال[٣٧], والتوازي.[٣٨]

٢- الإحالة اللفظية:

الإحالة من لفظها تعني الربط بين الكلمات, "فهذه الكلمات لا تملك دلالة مستقلة بل تعود على عنصر أو عناصر أخرى مذكورة في الخطاب"[٣٩], فللإحالة اللفظية أهمية كبرى في تماسك النص, فهي تعمل على ربط أجزاء النص سواء أكان ذلك على مستوى الكلمات أم على مستوى الجمل؛ أي أنها توضح الترابط الداخلي بين

---

(٣٠) وهو نوع من التكرار, مع مراعاة الاتفاق التام بين اللفظ والمعنى (تكرار اللفظ بعينه), راجع ابن أبي الإصبع المصري: تحرير التحبير, صـ ٢٥٣, وابن رشيق القيراوني: العمدة ٣٣٣/١

(٣١) هي أن تشاكل "إحدى اللفظتين الأخرى في الخط واللفظ", [ابن أبي الإصبع: تحرير التحبير, صـ ٣٩٣, والقزويني: الإيضاح ٥١١/٢].

(٣٢) "التعطُّف كالترديد في إعادة اللفظة بعينها في البيت, وأنَّ الفرق بينهما بموضعهما وباختلاف التردد, وثبت أنَّ التعطف لا بُدَّ وأن تكون إحدى كلمتيه في مصراع والأخرى في المصراع الآخر", [ابن أبي الإصبع: تحرير التحبير, صـ ٢٥٧, ود. بدوي طبانة: معجم البلاغة العربية, صـ ٤٢٤].

٣٣() يعني أنَّ الأبيات تتشابه أطرافها في لفظ القافية, فيعيد الشاعر القافية في أول البيت الذي يليها, [انظر ابن أبي الإصبع المصري: تحرير التحبير, صـ ٥٢٠, والقزويني: الإيضاح ٥٠٧/٢].

(٣٤) التشابه في لفظ القافية يقع في شطر البيت الأول, فتشابه الأطراف يربط بين بيتين, ورد العجز على الصدر يربط بين شطري البيت.

(٣٥) تجاوز حد المعنى بالخروج إلى المحال, [راجع د. بدوي طبانة: معجم البلاغة العربية, صـ ٤٧٧, وانظر القزويني: الإيضاح ٥٣٠/٢].

(٣٦) هي الزيادة في حد المعنى المعقول, ويستخدمها أغلب الشعراء, [يُنظر د. بدوي طبانة: معجم البلاغة العربية, صـ ٨٧, ٨٨, والقزويني: الإيضاح ٥٢٩/٢].

(٣٧) هو تمام معنى البيت قبل الإتيان بالقافية, فهو يفيد معنى زائدا على الكلام, [انظر ابن أبي الإصبع: تحرير التحبير, صـ ٢٣٢, والعلوي: الطراز ١٣١/٣].

(٣٨) تساوي الكلمات في الوزن دون التقفية, [انظر بدوي طبانة: معجم البلاغة العربية, صـ ٧١٥], وتسمى أيضًا الموازنة [انظر القزويني: الإيضاح ٥٦٨/٢].

(٣٩) د. عزة شبل: علم لغة النص, صـ ١١٩

أجزاء النص, ومن ثَمَّ تصبح الإحالة من أهم مظاهر الاتساق[٤٠], الذي يمثل ظاهرة من ظواهر التماسك؛ وهو يعني "ترابط الجمل في النص مع بعضها بعضا بوسائل لغوية معينة"[٤١], ومن الإحالة: الإحالة بالضمير وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة.

٣- التناص:

ترجع أهمية التناص إلى أنَّه وسيلة من وسائل تحقيق الترابط اللفظي والفكري بين النصوص, فهو من التصورات الأولى لتفسير واقع النص مع النصوص الأخرى؛ إذ إنَّه يسهم في توضيح العلاقات بين النصوص ومن صوره: التضمين, وحسن الاتباع[٤٢], والاستشهاد.

٤- الإجمال بعد التفصيل:

ومنه اللفّ والنَّشر "وهو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال"[٤٣], فالكاتب عندما يجمل المعنى ثُمَّ يفسره, يخلق نوعًا من التشويق والمعرفة لدى القارئ.

٥- التفصيل بعد الإجمال:

وهو يقابل الإجمال بعد التفصيل, إذ بالكاتب يُفصِّل كلامه قبل أنْ يجمله؛ مما يجعل السبق المعرفي مكتملا قبل أن تكتمل الجملة النصية.

٦- وسائل التحسين البديعية:

وهي وسائل تعمل على إبراز الشكل الجمالي للنص, وهي في ظاهرها وسائل شكلية جمالية, إلا أنَّ لها أهدافا أخرى, فحسن اللفظ البديعي المُستحسن "ليس يُنبئك

---

(٤٠) راجع الربيع بو جلال: معايير النصية في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني الاتساق والانسجام أنموذجًا, مجلة علوم اللغة, دار الغريب للطباعة والنشر, ع ١, م ١٤, ٢٠١١م, صـ ١٥٨

(٤١) المرجع السابق, صـ ١٥٧

(٤٢) "وهو أن يأتي المتكلم إلى معنى اخترعه غيره فيحسن اتباعه فيه". [ابن أبي الإصبع: تحرير التحبير, صـ ٤٧٥].

(٤٣) [القزويني: الإيضاح ٥١٩/٢, والعلوي: الطراز ٤٠٤/٢].

عن أحوالٍ ترجع إلى أجراس الحروف, وإلى ظاهر الوضع اللغوي, بل إلى أمرٍ يقع من المرء في فؤاده"[٤٤], فأصل الحسن أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني[٤٥], فلا قيمة للألفاظ المُسْبكة بدون المعنى؛ ومن ثمَّ لا يجب الفصل بينها حتى لو كان الحديث في هذه الفنون على اللفظ وشكله وحروفه ومكانه في المقام الأول.

ومن هذه الفنون: حسن الابتداء وبراعة الاستهلال, وحسن الخاتمة, والتذييل[٤٦], وصحة الأقسام وحسن التقسيم, والترشيح[٤٧], والتطريز[٤٨], والتفويف[٤٩], والتدبيج[٥٠], والتوشيع.[٥١]

- آليات الربط:

تعدُّ آليات الربط من الآليات المرئية التي تُضاف لآليات السبك النصي, وهدفها الربط النسجي بين الكلمات والجمل بواسطة بعض الأدوات, التي بدونها تكون الكلمات كالقوالب المجمعة دون تشكيل مبيّن لمعناها, فهذه الآليات غير مستقلة

---

(٤٤) عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة صـ ٥, ٦

(٤٥) القزويني: الإيضاح صـ ٥٧٠, ٥٧١

(٤٦) "هو أن يذيل المتكلم كلامه بجملة يتحقق فيها ما قبلها من الكلام". [ابن أبي الإصبع: تحرير التحبير, صـ ٣٨٧, وانظر القزويني: الإيضاح ٣٢٥/١].

(٤٧) "وهو أن يؤتى بكلمة لا تصلح لضرب من المحاسن حتى يؤتى بلفظة تؤهلها لذلك". [ابن أبي الإصبع: تحرير التحبير, صـ ٢٧١].

٤٨() "وهو أن يبتدئ المتكلم أو الشاعر بذكر جمل من الذوات غير مفصلة، ثُمَّ يخبر عنها بصفة واحدة من الصفات مكررة بحسب العدد الذي قدَّره في تلك الجملة الأولى, فتكون الذوات في كل جملة متعددة تقديرًا والجمل متعددة لفظًا والصفة الواحدة المخبر بها عن تلك الذوات متعددة لفظًا". [ابن أبي الإصبع: تحرير التحبير, صـ ٣١٤, والعلوي: الطراز ٩١/٣].

(٤٩) وهو يعني تجميع الفنون مع تساوي الجمل المركبة, [انظر ابن أبي الإصبع: تحرير التحبير, صـ ٢٦٠, ٢٦١, والقزويني: الإيضاح ٥٠٨/٢].

(٥٠) "وهو أن يذكر الشاعر ألوانًا يقصد الكناية بها أو التورية بذكرها عن أشياء من مدح أو وصف أو نسيب أو هجاء". [ابن أبي الإصبع: تحرير التحبير, صـ ٥٣٢، والعلوي: الطراز ٧٨/٣].

(٥١) هو "أن يأتي المتكلم أو الشاعر باسم مثنى في حشو العجز, ثُمَّ يأتي تلوه باسمين مفردين هما عين ذلك المثنى". [ابن أبي الإصبع: تحرير التحبير, صـ ٣١٦, وانظر القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة ٣٢٠/١, والعلوي: الطراز ٨٩/٣].

المعنى, ولا بد لها من تعلق بكلام آخر, وعلى حسب نوع الأداة المُستخدمة يتم تحديد شكل للكلمات يوصل لمعناها فالروابط هي التي تحقق التماسك الخطي بين القضايا المختلفة, وهي تُضاف لآليات السبك النصي, وهدفها الربط بين الكلمات والجمل, التي بدونها تكون الكلمات كالقوالب المجمعة دون تشكيل يعلق الكلام ببعضه؛ ليبيّن معناه.

- العلاقات المعنوية (الحبك):

يهدف الحبك إلى الربط العقلي للنص, حتى لا يُصبح النص مجرد قوالب جامدة لا علاقة بينها, فالنص ليس مجرد تجميع وحدات بلا مغزى, فوراء كلماته سياق يُحدد كيفية اتساقها وتحديد علاقاتها, التي لا تظهر مكتملة إلا من خلال الحبك النصي.

فبدونه لا تتحقق "الاستمرارية الدلالية التي تتجلى في منظومة المفاهيم والعلاقات الرابطة بين المفاهيم"(٥٢).

إنَّ التماسك النصي يوضح جميع صور العلاقات المتماسكة الظاهرة بين الكلمات, فالكلمات ليست مجرد تجميع وحدات بلا مغزى, فوراء هذه الكلمات سياق يُحدد كيفية اتساقها وتحديد علاقاتها, التي لا تظهر مكتملة إلا بالبحث عن التماسك المعنوي.

وفي هذا الجو من العلاقات والروابط يكون المعنى هو الرابط بين ألفاظ النص, فيُرشد القارئ إلى الاتساق ودوافع استخدام التراكيب المختلفة داخل النص.

إنَّ أجزاء النص حلقات متماسكة يستحيل الفصل بينها؛ حتى لا ينهار النص, فالتماسك النصي ليس ربطًا لفظيًا فقط, فهو ربطا لفظيًا يُظهر ربطًا معنويا في صورة وزنية مترابطة, وفنية منسجمة البديع.

لذا يمكن أن نقول إنَّ العلاقات المعنوية هي استنتاجات دلالية للصور الشكلية, وقد حصرت الباحثة هذه العلاقات في خمس علاقات رئيسة:

١- **علاقات الائتلاف:**

---

(٥٢) د. سعد مصلوح: في البلاغة العربية, صـ ٢٢٨

هذا النوع من العلاقات يبرز في أغلبه الاتفاق في عدة جوانب من الأمور, فاكتمال منظومة النص لا يتحقق بتآلف الألفاظ فقط, فوراء تماسك الألفاظ تظهر عدة منظومات ائتلافية كائتلاف الإيقاع والمعنى والبيان, وتتميز هذه المنظومات بأنها تسعي نحو التكامل والتكاتف من الصوت إلى البنية بأكملها؛ حتى لا يختل النظام المراد بناءه.

وقد تتفاوت درجات التماسك الائتلافي من نص لآخر ومن كاتب لآخر, فلا تتطابق منظومات الائتلاف مهما تشابهت الأغراض, وهذا عامل مهم يسعى إليه الكاتب, ويستخدمه بفطرته وأرادته, وهو ينقسم إلى:

أ- الائتلاف الإيقاعي:

يعتمد نجاح الكتابة (الشعرية خاصة) على قدر كبير من الائتلاف الإيقاعي, فإذا ائتلفت المنظومة المتوالية للوزن تحقق الانسجام الموسيقي بين الكلمات, ويعتمد هذا الانسجام على سلسلة من الإمكانات التي تستخدم إلى حد ما في ائتلاف الإيقاع وهي تشمل الوزن الشعري, والإيقاعات العروضية (الصوت - المقاطع), والنبر, والتنغيم وائتلاف القافية, وائتلاف اللفظ مع الوزن, وائتلاف اللفظ مع اللفظ, وائتلاف المعنى مع الوزن[٥٣], واختيار كلمات متوافقة النغم الإيقاعي.

ومن خلال العلاقات الوزنية, نلمس أهمية كل صوت منطوق؛ إذ لا يمكن الاستغناء عنه في المنظومة الوزنية, فبدونه ينهار التشكيل الوزني.

ومن الفنون البلاغية التى حرصت على الائتلاف الإيقاعي: السجع, والجناس, والتصريع, والترصيع, ولزوم ما لايلزم, والإيغال, والغلو, والتتميم, والتوشيح, ورد العجز على الصدر, وتشابه الأطراف, والتوازي.

ب- الائتلاف البياني:

إنَّ الائتلاف البياني يجلي على النص دلالات وتخيلات ومعاني خفية, لا تظهر إلا من خلاله؛ مما يجعله عنصرا مهما من عناصر تماسك النص, ويشمل

---

[٥٣] راجع ابن حجة الحموي: خزانة الأدب وغاية الأرب, صـ ٥٣٤, ٥٣٥

الاستعارة وهي أبرزها, والاستعارة المرشحة, والكناية ومنها الإشارة والرمز, والمجاز, والتشبيه ومنه التمثيل.

ج- الائتلاف اللفظي المعنوي:

إنَّ اللفظ وحده لا يستطيع تكوين السياق, فلا بدَّ من معنى يسعى إليه الكاتب أو الشاعر, وتكتمل هذه العملية بتوافق اللفظ مع المعنى؛ أي ترابط الكم والكيف, فاللفظ والمعنى مكملان للنص الشعري, ولا يمكن الاستغناء عن أحدهما ومن صور ائتلاف اللفظ مع المعنى: المناسبة وشبه الترادف والمساواة[٥٤] والترشيح, والتسهيم[٥٥], والموازنة, والمماثلة[٥٦], والتدبيج, والإرداف والتتبيع والتتميم.[٥٧]

ووراء كلِّ هذه الصور أهداف أخرى بنى الكاتب من أجلها نصه فالنص "ليس لعبا بالألفاظ فقط, وليس نقل تجربة فردية فحسب, إنَّه يهدف آنذاك إلى الحث والتحريض والإقناع والحجاج, ويسعى إلى تغيير أفكار المتلقي ومعتقداته, وإلى دفعه إلى تغيير وضعيته وسلوكه ومواقفه".[٥٨]

فالعلاقة إذن تبدأ من أصغر وحدة (وهي الصوت) إلى النص بأكمله, فالنص لا يوضع دون غرض أو هدف؛ لذلك لا بُدَّ من تفسير كل وحدات النص وعلاقاته قدر الإمكان؛ حتى نصل إلى غرضه وهدفه.

٢- علاقات الاختلاف:

---

(٥٤) هي "أن يكون اللفظ مساويًا للمعنى حتى لا يزيد عليه ولا ينقص منه". [ابن أبي الإصبع: تحرير التحبير, صـ ١٩٧].

٥٥() "وهو الذي يدل أحد سهامه على الذي يليه". [ابن أبي الإصبع: تحرير التحبير, صـ ٢٦٣, وابن رشيق القيرواني: العمدة ٣١/٢].

(٥٦) وتسمى أيضًا التمثيل, [وهي أن "يريد الشاعر إشارة إلى معنى فيضع كلامًا يدل على معنى آخر" شرط أن يكون على نفس الزنة], [انظر د. بدوي طبانة: معجم المصطلحات العربية, صـ ٦٣٣, القزويني: الإيضاح ٥٦٨/٢]

(٥٧) "هو أن يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع له, ويعبر عنه بلفظ هو ردفه وتابعه". [ابن أبي الإصبع: تحرير التحبير, صـ ٢٠٧].

(٥٨) الشهري: استراتيجيات الخطاب, صـ ٥٤٣, ٥٤٤

إنَّ اكتمال المعنى يحتاج إلى بناء العديد من العلاقات؛ لذا نجد أنَّ العلاقات يدخل في نسيجها العلاقات الاختلافية, وهذا لغرضٍ ما يخصُّ الكاتب, لا يتحقق بدون هذا الاختلاف, وعلى المتلقي تفسيره وإظهار سببه, هذا مع أخذه في الاعتبار أنَّ (الشيء لا يُعْرَف إلا بضده), فلو كانت الصورة لونًا واحدا أصابت العين بالملل, وإذا عزف العازف على آلة واحدة أرهق أذني المستمع, وإذا كان اللحن إيقاعًا واحدًا ما عرفنا الفرق بين لحن الحزن أو السعادة أو الألم أو البكاء ... إلخ.

ومن ثمَّ يعدُّ الاختلاف القائم على العلاقات المتعددة من التباينات من عوامل نجاح النص.

وهذه العلاقات لا تظهر إلا في وجود الضدية والتباين, فوضوح العلاقات أحيانا لا يظهر إلا في تباين المعاني, ويشمل التباين: الطباق وصحة المقابلات والمقابلة والإيهام[٥٩] والمناقضة[٦٠] والمشاكلة, والتورية (النقيض الخفي), والتورية المرشحة, والاستخدام (النقيض الظاهر), والتمثيل[٦١], والعكس والتبديل.[٦٢]

٣- الفصل والوصل:

وهما يحملان مفهوم البلاغة[٦٣] الرئيس, وهو "معرفة الفصل من الوصل"[٦٤], ويندرج تحته العديد من الفنون البلاغية منها: الاستطراد, والانتقال

([٥٩]) سماه ابن أبي الإصبع التوهيم, "وهو أن يأتي المتكلم في كلامه بكلمة يوهم ما بعدها من الكلام أنَّ المتكلم أراد تصحيفها", [تحرير التحبير, صـ ٣٤٩], وهو أيضًا "ألا يكون أحد الشيئين ضد الآخر, ولا موصوفًا بضد ما وصف به الآخر". [د. بدوي طبانة: معجم البلاغة العربية, صـ ٧٣٩].

([٦٠]) "وهو تعليق الشرط على نقيضين: ممكن ومستحيل". [ابن أبي الإصبع, صـ ٦٠٧].

([٦١]) وهو "التشبيه الذي يكون وجه الشبه فيه صورة من أمور متعددة". [د. بدوي طبانة: معجم المصطلحات العربية, صـ ٦٣٥, وانظر ابن رشيق القيرواني: العمدة ٢٧٧/١].

([٦٢]) العكس والتبديل: "هو الإتيان بنقيض المعنى المشهور". [الزمخشري (ت٥٣٨هـ): الكشاف عن حقائق عوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ٤١٤/١ هامش رقم (١), وانظر القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة ٥١٤/٢].

([٦٣]) تحمل تعريفات البلاغة معنى السبك والربط مع وضوح المعنى, وهذه هي الشروط الأساسية للاستمرارية والقبول, يقول العسكري في عدة مواضع: "يسمَّى الكلام فصيحًا بليغًا, إذا

من غرضٍ إلى غرض ثُمَّ العودة إلى الغرض الأول, ومنه الاعتراض, والاستدراك, والاستطراد ثمَّ الرجوع, وبراعة التخلص.

٤- علاقات التداخل والتكامل:

وعادة ما تكون هذه العلاقات بين جملتين أو أكثر, فلا تتم دلالة إحداهما بدون الأخرى, ويتعلق الكلام ببعضه على ترتيب معين, ومن هذه العلاقات: الشرط, والمناقضة, والاستفهام[٦٥], والسببية, والتعليل, والعموم والخصوص, والتقديم والتأخير, والتبعية, والظرفية, والاشتراك (المشترك اللفظي), والاستثناء, والمقارنة[٦٦], والتقابل, والتفويف.

ومن الملاحظ أنَّ علاقات التداخل والتكامل تحمل مجموعة من الظواهر العلائقية المختلفة من المتمم والمتناقض والمتعارض والمتفق, فهذا الاتساع والتنوع يُشير إلى التماسك والترابط في كل تكوين من مكونات النص.

٥- العلاقات الإحالية الخارجية:

وهي تعني خفاء جزء من الدلالة, حتى ينفعل القارئ بالنص ويشعر بمشاعر الكاتب؛ ومن ثمَّ لا يفرض عليه نمطًا معينا, فيتخيل المحيل إليه حسب ما يرى.

وهذا النوع من الإحالة يستلزم الوعي الذهني لدى المتلقي؛ لأنها غير ظاهرة في النص, وهي تستلزم وعيا من القارئ للبحث عنها خارج النص حتى تكتمل دلالته,

---

كان واضح المعنى سهل اللفظ, جيد السبك غير مستكره فجٍ, ولا متكلف وخم", ويقول في موضع آخر: "البلاغة كلُّ ما تبلغ به المعنى قلبَ السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن", ويقول أيضا: "البلاغة إنما هي إيضاح المعنى وتحسين اللفظ". [انظر على الترتيب, الصناعتين, صـ ١٤, ١٦, ١٨].

[٦٤]() انظر الجاحظ: البيان والتبيين ٨٨/١, والعسكري: الصناعتين, صـ ٤٥٨, وابن رشيق القيرواني: العمدة ٢٤٤/١

([٦٥]) الاستفهام يحمل معنى السؤال والجواب وهو من "العلاقات الدلالية التي تعمل داخل النص بالربط بين القضايا, فتؤدي إلى التماسك الدلالي, كما أنها من العلاقات التي تربط النص بالسياق". [د. عزة محمد شبل: علم لغة النص, صـ ٢٠٨].

([٦٦]) هي "أن يقرن الشاعر الاستعارة بالتشبيه أو المبالغة, أو غير ذلك من المعاني في كلامه". [ابن أبي الإصبع: تحرير التحبير, صـ ٦٠٣].

ومنها: التشابه[٦٧], والتتابع[٦٨], والإشارة, والرمز, والتورية, والكناية, والجزء والكل, والتعليل, والترادف, والحذف.

ومن خلال هذه العلاقات وائتلافها أو اختلافها, يتضح أنَّ البلاغة تُظهر العلاقات وتنظمها, وليست هي العلاقات نفسها.

كما يظهرُ التماسكُ والترابطُ والانسجامُ الكلي للبنية النصية من خلال الكشف عن العلاقات التي تربط النص, ووجود فنون البلاغة داخل هذه العلاقات, يجعلها تحتل الدور الرئيس لتفسير بنى النصوص المختلفة على مستوى الشكل والمضمون, فالدراسات البلاغية تعدُّ "من أهم الدراسات التي تؤكد الارتباط بين دراسة اللغة واستعمالها في السياق"[٦٩] في البنية الكبرى للنصوص.

خاتمة:

توصل البحث إلى عدة نتائج, نذكر منها:

- استخدام البلاغة في الكلام يزيد من التفاعل بينها وبين علم النص؛ هذا لأنّ البلاغة تضمن نجاح عملية السبك والحبك, وهما من أهم معايير النصية.
- إن علوم البلاغة تحمل عدة وظائف جمالية تحقق التواصل الفكري مع القارئ من خلال الإقناع, والانفعال, والتخيل, والاتصال.
- تقدم علوم البلاغة شبكة من العلاقات تقوم على الدلالات الكلية للكلمات؛ مما يساهم في تفسير النصوص, وتبرز التماسك والانسجام والتلاؤم بين أجزاء النص الواحد والنصوص الأخرى.
- جميع العلاقات اللفظية والمعنوية, لا تُدرَك إلا من خلال الفنون البلاغية, ففنون البلاغة تُظهر هذه العلاقات وكيفية إسهامها في البنية الكلية للنصوص.

([٦٧]) "هو ما يلحق فيه الأدنى بالأعلى، والمجهول بالمعلوم, والخفي بالجلي, والناقص بالكامل". [د. بدوي طبانة: معجم البلاغة العربية, صـ ٢٩٣].

([٦٨]) ويسمى أيضا التتبيع والتجاوز, وهو نوع من الإشارة [راجع ابن رشيق: العمدة ٣١٣/١].

([٦٩]) الشهري: استراتيجيات الخطاب, صـ ٦

- السياق هو المُحدِّد الأساسي لوظائف الكلمات, ومن خلال التكوين الكلامي تنعكس العلاقات المختلفة التي تفسرها الفنون البلاغية المتنوعة على مستوى الشكل والمعنى.

- جميع العلاقات البلاغية مبنية على التفاعل والتبادل, وهذا يُشير إلى أهمية جميع العناصر النصية, سواء أكانت متفقة أم مختلفة؛ حتى نستيطع الوصول إلى الهدف الأسمى من وراء صنع النص, فلولا هذا الهدف ما استوعب النص كل هذه العلاقات.

المصادر والمراجع

١- بحيري, سعيد حسن, دكتور:

- علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات, الشركة المصرية العالمية, لونجمان, ط١, ١٩٩٧م.

٢- بوجراند, دي:

- النص والخطاب والإجراء, ترجمة: د/ تمام حسان, عالم الكتب, ط٢, ٢٠٠٧م.

٣- الجاحظ, عمر بن بحر:

- البيان والتبيين, تحقيق: عبد السلام محمد هارون, الهيئة العامة لقصور الثقافة, ٢٠٠٣م.

٤- الحموي: ابن حجة

- خزانة الأدب وغاية الأرب, طبعة Princeton university library, (د-ت)

٥- خطابي, محمد, دكتور:

- لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب, المركز الثقافي العربي, بيروت- لبنان, ط٢, ٢٠٠٦م.

٦- دايك, فان:

- علم النص مدخل متداخل الاختصاصات, ترجمة: سعيد حسن بحيري, دار القاهرة, ط٢, ٢٠٠٥م.

٧- الزمخشري, جار الله:

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل, تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين, مكتبة العبيكان, ط١, ١٩٩٨م.

٨- شبل محمد, عزة, دكتورة:

- علم لغة النص النظرية والتطبيق, مكتبة الأداب, القاهرة, ط٢, ٢٠٠٩م.

٩- الشهري, عبد الهادي بن ظافر:

- استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية, دار الكتاب الجديد المتحدة, ط١, ٢٠٠٤م.

١٠- طبانة, بدوي, دكتور:

- علم البيان دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية, مكتبة الأنجلو المصرية, ط ٤, ١٩٧٧م

- معجم البلاغة العربية, دار المنارة, ودار الرفاعي, جدة- الرياض, ط٣, ١٩٨٨م.

١١- عبد البديع, لطفي, دكتور:

- فلسفة المجاز بين البلاغة العربية والفكر الحديث, الشركة المصرية العالمية للنشر, لونجمان, ط١, ١٩٩٧م.

١٢- عبد الجليل, حسني, دكتور:

- علم البديع بين الاتباع والابتداع (دراسة نظرية وتطبيقية في شعر الخنساء), دار الوفاء, الإسكندرية, ط١, ٢٠٠٦م.

١٣- عبد المطلب, محمد, دكتور:

- البلاغة العربية قراءة أخرى, الشركة المصرية العالمية للنشر, لونجمان, ط ٢, ١٩٩٧م.

١٤- العسكري, أبو هلال:

- الصناعتين (الكتابة والشعر), تحقيق: علي محمد البجاوي وآخر, دار الفكر العربي, ط٢, ١٩٧١م.

١٥- العمري, محمد, دكتور:

- البلاغة العربية أصولها وامتدادتها, أفريقيا الشرق, المغرب, ط٢, ٢٠١٠م.

١٦- العلوي:

- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز, الهيئة العامة لقصور الثقافة, ٢٠٠٩م.

١٧- القيرواني, ابن رشيق:

- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده, تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد, دار الجيل, بيروت- لبنان, (د- ت).

١٨- القزويني, الخطيب:

- الإيضاح في علوم البلاغة, تحقيق: محمد السعدي فرهود وآخرين, دار الكتاب المصري, القاهرة, دار الكتاب اللبناني, بيروت, ٢٠٠٤م.

١٩- ليتش, جيوفري:

- مبادئ التداولية, ترجمة: عبد القادر قنيني, أفريقيا الشرق, المغرب, ٢٠١٣م.

٢٠- المبخوت, شكري, دكتور:

- الاستدلال البلاغي, دار الكتاب الجديد, ط٢, ٢٠١٠م

٢١- المصري, ابن أبي الإصبع:

- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن, تحقيق: حفني محمد شرف, المجلس الأعلى للشئون الإسلامية, القاهرة, ٢٠١٢م.

الدوريات:

١- بوجادي, خليفة, دكتور:

- نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية, مشروع لربط البلاغة بالاتصال, ندوة الدراسات البلاغية, جامعة سطيف, الجزائر, ١٤٣٢هـ.

٢- الربيع بو جلال: معايير النصية في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني الاتساق والانسجام أنموذجًا, مجلة علوم اللغة, دار الغريب للطباعة والنشر, ع ١, م ١٤, ٢٠١١م.

٣- مصلوح, سعد, دكتور:

- في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة, مجلة النشر العلمي, جامعة الكويت, ط١, ٢٠٠٣م.

المراجع الأجنبية:

1- Kristie S. Fleckenstein: An appetite of Coherence: arousing and fulfilling desires, college composition and communication, Vol.43, 1, feb 1992.